الصراع السياسى الدينى وأثره فى سقوط الإمامة الإباضية الثانية

الدكتور
حسن محمد النابودة

obeikan.com

obeikan.com

الصراع السياسى الدينى وأثره فى سقوط الإمامة الإباضية الثانية*

توطئة :

بعد سقوط الدولة الأموية عام 132 / 750، حمل عدد من أفراد القبائل العمانية المهاجرة إلى العراق أفكار الحركة الإباضية ومبادئها من البصرة إلى عمان التى أضحت تدريجيا مركز الحركة. وبهذا الانتقال دخلت الحركة مرحلة جديدة هى مرحلة نضوج المذهب الإباضى الذى تطور من تيار سياسى يدعو إلى العودة إلى عصر الخلفاء الراشدين إلى مذهب دينى استقل بأفكاره ومبادئه السياسية والدينية، وارتبط بأرض عمان إذ تكون عليها، وتطورّ فى رحابها. وذلك بتأثير عوامل كثيرة، أهمها التغير الجذرى فى الفكر السياسى للدعوة الذى انتقل من مرحلة السر والكتمان إلى مرحلة الظهور وإعلان الدولة المستقلة. (1)

(*) أعدّ هذه الدراسة أستاذ مشارك فى جامعة الإمارات العربية المتحدة.

(1) ظلت الأفكار الإباضية مرتبطة بالمبادئ الأولى التى دعا إليها الخوارج وأساسها أن الإيمان "قوة وعمل ونية" و"من لم يكن :بمؤمن فهو كافر". مصنف مجهول، **كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**، تحقيق: أحمد عبيدلى، نقوسيا: دلون، 1985، 92. إلا أن الفكر السياسى للأباضية كان أكثر مرونة واعتدالاً من الفكر السياسى الخارجى، حيث أجاز أئمة المذهب الأوائل إمكانية التعايش السلمى مع من خالفهم واعتبار الفترة التى لا يستطيعون فيها انتخاب إمامهم فترة الكتمان، وهى "ملازمة الأمر سراً بلا إمام" الدرجينى، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت:670/ 1271) **طبقات المشايخ بالمغرب**، د.ت، د.ن، 1/ 6.

وقد أفرزت الحركة الإباضية فى عمان قادة من نوع جديد[1]، أخذت الدعوة بهم منحى آخر، غلب عليه الطابع القومى؛ حيث رأى هؤلاء القادة أن دعوتهم فى حاجة إلى دعم القبائل القوية؛ كان من أشهر أولئك القادة آل الجُلَنْدَى[2] الذين حكموا عمان قبل الإسلام وكانوا لا يزالون يتمتعون بنفوذ قوى فى المنطقة، فرأوا فى الدعوة الإباضية فرصة للاستقلال بعمان بعد سقوط الدولة الأموية، فالتقت مصالح الطرفين وتم الاتفاق على إقامة الإمامة الإباضية الأولى عام 134 / 752، لكن المذهب الإباضى نفسه لم ينتشر بين جميع القبائل فكان ذلك من أسباب سرعة سقوط الإمامة الأولى وعدم قدرتها على المقاومة رغم توافر الظروف الجغرافية والبعد عن مركز الخلافة فى بغداد.[3]

وتعد الفترة التاريخية للحركة الإباضية ما بين 134- 177 / 752 – 753 فترة مجهولة تماماً لعدم توافر أية معلومات عنها فى المصادر العربية الأولى وكذلك الحال فى المصادر

---

(1) اختيرت عمان مقراً بديلاً للبصرة لعوامل أهمها: دخول أعداد كبيرة من أزد عمان فى الدعوة بعد فشل ثورة يزيد بن المهلب، وبُعد عمان عن مركز الخلافتين الأموية والعباسية، ولجوء الكثير من أتباع طالب الحق فى اليمن إلى عمان بعد فشل ثورته زمن مروان بن محمد. انظر: النابودة، حسن: "ثورة يزيد بن المهلب"، دراسات، الجامعة الأردنية، المجلد 29، العدد 3، 2002؛ H. M. Al- Naboodah, "The Ibadi Movement: a Study of its Early Development and Ideas", **Digest of Middle East Studies**, vol. 12, no 2 (2003), 1-18.

(2) وفقاً لما تذكره المصادر العربية الأولى فقد حكم آل الجلندى عمان قبل الإسلام وكانوا يدفعون الجزية إلى الفرس، لكن تلك المصادر لا تذكر أى دور لآل الجلندى فى فتوح العراق ولا فى الأحداث التى جرت فيه زمن الأمويين. ويبدو أنهم آثروا البقاء والاستمرار فى عمان. وتشير بعض الروايات العمانية إلى أن الجلندى شارك فى ثورة طالب الحق مما يوحى أنهم كانوا يطمحون إلى السلطة، وعندما حدث الفراغ السياسى فى عمان إثر سقوط الدولة الأموية، استغل آل الجلندى الفرصة للاستقلال بعمان متبنين المذهب الإباضى كما تذكر المصادر العمانية. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: J.C. Wilkinson, "The Julanda of Oman", **Journal of Omani Studies**, vol. 1, 97-108.

(3) على الرغم من أن المصادر العمانية تؤكد على أن تسمية الفترة التى أعلن فيها بنو الجلندى الاستقلال بعمان بفترة الإمامة الأولى وقد سلم بهذا الأمر جميع من كتب عن هذه الفترة من الباحثين المعاصرين إلا أن ذلك بحاجة إلى مزيد من التحليل والنقاش للروايات المتعلقة بتلك الفترة. ويذكر الطبرى أن أبا العباس السفاح أرسل خازم بن خزيمة إلى عمان للقضاء على الخوارج وهذا يتوافق مع ما ذكره صاحب **كشف الغمة**، 248 – 250؛ انظر: الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير (ت:310 / 922)، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، 1976، 7/ 462؛ الأزدى، يزيد بن محمد (ت 334/ 945)، **تاريخ الموصل**، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1967، 155.

الإباضية رغم أهميتها السياسية الكبيرة. فقد شهدت تلك الفترة تقلص النفوذ السياسى لآل الجلندى[1] الذين حكموا عمان أكثر من قرنين من الزمن بشكل متقطع، وبروز قبيلة اليحمد التى حملت راية الدفاع عن الإمامة طوال فترة العصور الوسطى.[2]

وتعد قبيلة اليحمد[3] من القبائل العمانية القوية، وتنتمى إليها أسرة آل المهلب المشهورة فى العراق. وكان أعيان هذه القبيلة منذ إسلامهم يتطلعون دوماً إلى الرئاسة، فقد حاربوا على الجبهة العراقية فى بداية الفتوحات الإسلامية ووقفوا مع عائشة فى حربها ضد على بن أبى طالب، ثم أحيوا حلفاً قديماً مع قبائل ربيعة (بكر وعبد القيس فى العراق) فى بداية الدولة الأموية.[4]

---

(1) يرجع السالمى سبب زوال حكم آل الجلندى إلى تعاونهم مع السلطة العباسية وخذلانهم للعمانيين، لذلك قرر أعيان الدعوة وفقهاؤها استبعادهم كلياً واللجوء إلى قبيلة اليحمد التى سيصبح لها الشأن كله فيما بعد "وبذلك انقضت دولة بنى الجلندى وانتقلت الدولة إلى اليحمد فلم يكن لبنى الجلندى بعدها دولة". انظر: السالمى، نور الدين عبد الله بن حميد، **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، مسقط: وزارة التراث القومى، 1981، 1/ 1080، ويجعلنا ذلك نميل إلى أن بنى الجلندى لم يتقبلوا المذهب الإباضى ولم تستهوهم أفكاره.

(2)تورد بعض المصادر الإباضية لشمالى إفريقيا معلومات عن الاتصالات السرية بين دعاة الإباضية فى البصرة وأتباعها فى شمالى إفريقيا وطرق نشر مبادئ الدعوة وأفكارها والمجالس أو حلقات العلم التى كان أولئك الدعاة يقيمونها بسرية تامة وقد تطرق لهذا الموضوع بالتفصيل عمر النامى فى أطروحته للدكتوراه؛ ويمكن القول إن الأسلوب نفسه قد تم اتباعه فى نشر الدعوة فى عمان حيث يشير مؤلف كتاب الأنساب المنسوبة للعوتبى إلى مجموعة من رجال الدين الذين نقلوا تعاليم المذهب إلى عمان، أو كما يسميهم حملة العلم، انظر: العوتبى، سلمة بن مسلم: **الأنساب**، مسقط: وزارة التراث القومى والثقافة، 1984، 2/ 229؛ النامىّ، وعمرو خليفة، **دراسات عن الإباضية**، ترجمة ميخائيل خورى، بيروت: دار الغرب الإسلامى، 2001، 99 – 117..

(3) انظر: سليمان الخروصى، "دولة اليحمد فى عمان"، **حصاد ندوة الدراسات العمانية**، مسقط: وزارة التراث القومى والثقافى، 1900 المجلد الأول، 305..

(4)وردت إشارات كثيرة لهذا الحلف فى المصادر العربية الأولى. انظر: البلاذرى، أحمد بن يحيى (ت: 279/ 892)، **أنساب الأشراف**، القسم الثانى من الجزء الرابع 1938، القدس، تحقيق: ماكس شلو سنجر، 105؛ وفى نقائض جرير والفرزدق قال أبو عبيدة: "وكانت جماعة الأزد آخر من نزل البصرة... فى آخر خلافة معاوية وأول خلافة يزيد... فأتاهم مالك بن مسمع ورئيس الأزد يومئذ مسعود بن عمرو العتكى فقال مالك جددوا حلفنا... ففعلوا ذلك" انظر: أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت: 209/ 824)، **النقائض: نقائض جرير والفرزدق**، ليدن: مطبعة بريل، 1907 2/ 729-730؛ الطبرى، تاريخ، 5/ 516 – 517.

وفى زمن عبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وسليمان تبوأت أسرة آل المهلب[1] مكانة سياسية كبيرة قبل أن يتم القضاء عليها واستئصالها من العراق كلياً زمن يزيد بن عبد الملك.[2] ولا شك أن المآسى التى حلت بهذه الأسرة فى عهد يزيد كان لها تأثير كبير على أزد عمان فى العراق وعلى قبيلة اليحمد بشكل خاص. وكانت أحد الأسباب المهمة التى دفعت بعض أعيان هذه الأسرة إلى الانضمام إلى الحركة الإباضية وإلى التعاون مع الدعوة العباسية انتقاما لما حل بآل المهلب زمن يزيد بن عبد الملك.

وبعد إخفاق محاولة الاستقلال الأولى بقيادة آل الجلندى ازدادت أهمية ومكانة قبيلة اليحمد التى انضم كثير من أفرادها إلى الدعوة الإباضية وأخذوا يتطلعون إلى ملء الفراغ السياسى الذى أحدثه هذا السقوط السريع لآل الجلندى. لكن الظروف لم تكن مناسبة بعد لإعلان الاستقلال عن الدولة العباسية فالدعوة الإباضية ممثلة فى دعاتها "حملة العلم"[3] بحاجة إلى نشر مبادئها وأفكارها بين أفراد قبائل عمان لضمان بقائها واستمرارها بعيداً عن أعين السلطة العباسية وولاتها على البحرين وعمان، وهذا ما يفسر تأخر قيام ما يعرف بالإمامة الثانية أكثر من أربعين سنة.[4]

---

(1) انظر: Hinds, M. **An Early Islamic Family form Oman**, Manchester: Manchester University, 1991.

(2) لمزيد من التفاصيل حول ثورة يزيد بن المهلب انظر: النابودة، حسن، "ثورة يزيد بن المهلب"، **دراسات**، الجامعة الأردنية، مجلد 28، العدد 3، 2003، 703 – 722..

(3) لا تتوافر لدينا أية معلومات عن الاتصالات السرية بين دعاة الدعوة وأنصارها فى عمان ومركز الدعوة فى البصرة، ونرجح أن اهتمام قادة الحركة كان باتجاه شمال إفريقيا، أما عمان فقد تولى نشر مبادئ الحركة فيها أفراد قبيلة الأزد العمانية ولم يكونوا بقوة دعاة الحركة فى الشمال الإفريقى وهذا يفسر تأخر إعلان قيام الإمامة الإباضية أو إمامة الظهور. انظر: العوتبى، **أنساب**، 2/ 229 النامى، **دراسات عن الإباضية**، 95 – 108..

(4)يورد الطبرى فى تاريخه أسماء عدد من الولاة الذين حكموا عمان قبل قيام الإمامة دون إعطاء أية معلومات مفيدة عن الدور الذى قاموا به، وهذه قائمة بأسماء بعض الولاة العباسيين فى القرن الثانى الهجرى (سليمان بن على عامى 133 و 134، **تاريخ**، 7/ 459 – 465، محمد بن سليمان بن على عام 160 وعام 163، **تاريخ**، 8/ 134، 149، صالح بن داوود عام 164، **تاريخ**، 8/ 151، المعلى مولى المهدى عام 167، **تاريخ**، 8/ 166، الحسن الحوارى عام 169 زمن الهادى، **تاريخ**، 8/ 204، محمد بن سليمان بن على زمن الرشيد عام 170، **تاريخ**، 8/ 234، عيسى بن جعفر بن سليمان غزا عمان عام 189 زمن هارون الرشيد، **تاريخ**، 8/ 317..

تأسيس الإمامة:

وفقاً لما تذكره المصادر العمانية فقد بايع قادة الدعوة محمد بن عبد الله بن أبى عفان اليحمدى حوالى 175/ 791 يساعده الفقيه الإباضى موسى بن أبى جابر الأزكوى[1]؛ أى أن الإمامة أصبحت تحظى بحماية قبيلة اليحمد وحلفائها، والإمام يحظى بدعم رجال الدين بقيادة الفقيه المنفذ. وفى هذه المرحلة المتقدمة من عمر الإمامة نجد أن السلطتين الروحية والزمنية أو الدينية والدنيوية قد تقاسمها الإمام والفقيه، وكان للفقيه وحده الحق فى انتقاد الإمام ومراقبته.[2]

ومن جملة الأسباب التى دعت قادة الحركة الإباضية إلى إعلان دولتهم المستقلة تردى الأوضاع السياسية والأمنية فى مدن عمان وقراها وهو ما عبر عنه أحد قادة هذه الحركة منير ابن النير الجعلانى (القرن الثانى الهجرى) "من حملة العلم" بقوله: "فلما ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعث عليكم شراركم، فقد رأيتم كيف دانوكم، وكيف كانت سيرتهم فيكم، وما أظهورا فى الأرض من الفساد... حتى قطعت السبل، واستحلت المحارم... وأزهقت دماء المسلمين بغير حلها.."[3] وفى ذلك إشارة واضحة إلى الغزوات التى كان يشنّها قادة القبائل على المدن الرئيسية، حيث يذكر صاحب كتاب الأنساب أن

---

(1)يذكر السالمى أن أحداثاً مهمة دفعت ومهدت لقيام الإمامة: الظهور، ويبدو أن الرواية التى وصلت السالمى قد فقدت الكثير من صحتها بسبب التفاصيل الدقيقة التى تضمنتها، إلا أنها توحى بلا شك أن الانقلاب الذى حدث كان نتيجة تنظيم لقادة الدعوة وأنصارها فى المدن العمانية، وقد وقع الاختيار – كما تشير الرواية أيضاً فى بداية الأمر – على أحد حملة العلم الذى ذكره صاحب كتاب **الأنساب** وهو محمد بن المعلى الكندى، لكن الحجة التى يذكرها السالمى وهى اعتذاره عن تحمل المسؤولية تبدو ضعيفة، وأن خلافاً قد وقع حول مسألة اختيار الإمام، وأن أتباع قبيلة اليحمد هم الذين انتصروا فى النهاية، فتم ترشيح محمد بن أبى عفان الذى نشأ فى العراق ثم هاجر إلى عمان، وفى ذلك ما يفسر أن أتباع التنظيم المسيطرين على الدعوة لا يزالون من أهل العراق. انظر: العوتبى، **الأنساب**، 1/ 378 السالمى، تحفة، 1/ 110 – 111.

(2)حول هذا الموضوع انظر: Rubinacci, R. "The Ibādīs", in **Religion in the Middle East**, ed. A.J. Arberry, Combridge, 1969, vol.2, 302-303.

(3)الشماخى، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت: 928/ 1521): **كتاب السير**، تحقيق أحمد بن سعود السيابى، مسقط، وزارة التراث القومى والثقافة، 1987، 1/ 242، وذكره العوتبى فى كتابه الأنساب منير بن النير الريامى، وهو أحد الأربعة الذين سماهم حملة العلم، وقال: إنهم "نقلوا به من البصرة إلى عمان". انظر: العوتبى، **الأنساب**، 2/ 229.

غسان بن سعد الهنائى "وقع بنزوى ونهبها، وهزم بنى نافع.. بعد أن قتل منهم خلق كثير وذلك فى شعبان من سنة خمس وأربعين ومائة"[1]. وهذا يعنى أن سلطة الوالى العباسى على المناطق الداخلية لعمان كانت ضعيفة، ولم يقدر على صدّ مثل هذه الغارات. ولا شك أن ذلك قد دفع الحركة الإباضية إلى تكثيف نشاطها فى هذه المناطق والإعداد والتنظيم لإعلان إمامة الظهور، وهى الإمامة التى تعقب مرحلة الكتمان التى تسير فيها الحركة شؤون المجتمع والمنتسبين إليها بدون إمام، وهى فترة قد تستغرق عدة سنوات إلى أن يتهيأ الظرف المناسب، ويُبايع الإمامُ، وهو الأمر الذى بويع عليه محمد بن أبى عفان على أن يعيد للناس حقوقهم، ويسير فيهم بسيرة الخلفاء الراشدين وفقا لقواعد المذهب الإباضى[2].

ويذكر صاحب **كشف الغمة** أن خلافاً وقع بعد سنتين من اختيار الإمام محمد بن أبى عفان بسبب تصرفه بما لا يتفق ومبادئ الدعوة "فظهرت منه للمسلمين أحداث لم تعجبهم"[3]، فتم تدبير انقلاب سلمى ضده "فعملوا له حيلة، وأخرجوه من عسكر نزوى، فلما خرج اجتمعوا فاختاروا إماماً، وعزلوا محمداً، وكانت إقامته سنتين وشهراً".[4]

---

(1) العوتبى، **الأنساب**، 32/ 255.

(2) يرى ولكنسون أن حامل العلم موسى بن أبى جابر كان يسيّر الأمور عن طريق مؤسسه الشراة أو ما يعرف بأصحاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن الأمور كانت تحت سيطرة رجال الدعوة قبل مبايعة محمد بن عبد الله وقيام إمامة الظهور. Wilkinson, J.C., "the origins of the Omani state" in **The Arabian Peninsula: Society and Politics**, ed. D. Hopwood, London, 1972, 78.

وقد ورد ذكر أسماء آخرين من رجال الدعوة الذين شهدوا أو عاصروا قيام الإمامة الإباضية فى الرسالة المنسوبة إلى منير بن النير الجعلانى أحد حملة العلم الذين ذكرهم العوتبى، أنظر: الشماخى، السير، 2 / 238.

(3) **كشف الغمة**، 254.

(4) انظر: **كشف الغمة**، 254، وابن رزيق، حميد بن محمد، **الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين**، تحقيق: عبد المنعم عامر ومحمد مرسى، مسقط، وزارة التراث القومى، 1983، 224. وقد علّق السالمى على ذلك بقوله "واختلفوا فى صفة إمامته، فقيل كان إمام دفاع حتى تضع الحرب أوزارها، وقيل كان أمير جيش فأساء السيرة... فعزله المسلمون حين لم يرضوا سيرته ولا مذهبه فى النصف من ذى القعدة من سنة تسع وسبعين ومائة، وكانت ولايته سنتين وشهرين إلا شيئا" انظر: السالمى، تحفة، 1/ 111.

السالمى، تحفة، 1/ 121.

وتبدو الصورة قاتمة وغير واضحة وراء ذلك العزل السريع فى وقت كانت فيه الإمامة الناشئة فى أمَسِّ الحاجة إلى الاستقرار الداخلى. ورواية صاحب كشف الغمة تتناقض مع مبادئ الدعوة ومع الحدث نفسه، ويصعب الاعتماد عليها خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار الفترة الزمنية الطويلة التى تفصله عن تلك الأحداث. فإذا كان اختيار محمد بن عثمان إماما قد حصل حقيقة فلا بد أن ذلك قد تم وفق معايير تتفق ومبادئ الدعوة، أى لابد أن تتوافر فيه صفات الإمام المراد اختياره، وأن عزله السريع سوف يتسبب فى اختلاف القائمين على الحركة وهو الأمر الذى حدث عندما عزل الصلت بن مالك كما سنرى؛ ومحمد بن أبى عفان شخص لا نجد له صدى ولا مكانة كبيرة فى المصادر الإباضية رغم كونه أول إمام ظهر بعد الجلندى كما تزعم هذه المصادر.

ونرى أن إمامة الظهور لم تتم إلا فى عهد الوارث بن كعب الخروصى لسببين: الأول: من الصعب قبول فكرة عزل أول إمام منتخب بعد توليه الإمامة بسنتين – خاصة – أنه يُعدّ من حملة العلم، الثانى: لابد أن يكون رد فعل الدولة العباسية زمن الرشيد سريعاً على مثل هذا الإجراء، وهو الأمر الذى حدث مباشرة بعد تولى الوارث بن كعب الإمامة. أما محمد بن عفان فقد كان المسئول عن تسيير شئون الحركة قبل إمامة الظهور، كما توحى الروايات التى ذكرتها السير المنسوبة لبعض علماء المذهب الأوائل التى سنعرض لها بالتحليل والمناقشة لاحقا.

تشير الروايات الإباضية إلى أن الخليفة العباسى هارون الرشيد عندما بلغته أخبار عمان أرسل ابن عمه عيسى بن جعفر بن المنصور فى ألف فارس وخمسة آلاف راجل زمن الوارث بن كعب (177 – 179 / 793 – 795)،[1] للقضاء على الإمام وبسط سلطة الخلافة على عمان؛ إلا أن حملته هذه كما تذكر هذه الروايات لم يكتب لها النجاح إذ استطاع العمانيون هزيمة الجيش العباسى وأسر قائده عيسى بن جعفر.[2] ويذكر الطبرى رواية غير مكتملة تتفق جزئياً مع ما ذكرته المصادر العمانية فيقول: "وولى [هارون الرشيد] عيسى بن جعفر بن سليمان عمان، فقطع البحر من ناحية جزيرة ابن كاوان، فافتتح حصناً بها وحاصر آخر، فهجم عليه ابن مخلد الأزدى، وهو غارٌّ، فأسره وحمله إلى عمان فى ذى

(1) السالمى، تحفة، 1/ 121.

(2) الشماخى، السير، 1/ 341؛ كشف الغمة، 255؛ السالمى، تحفة، 1/ 119 – 120.

الحجة" فى سنة 189هـ.[1] وذلك يتفق مع ما ذكرته المصادر العمانية، إلا أن الطبرى يذكر أن عيسى بن جعفر توفى بعد ذلك فى طريقه إلى الرى وهو يريد اللحاق بهارون الرشيد وذلك فى عام 192 هـ[2].

ويشير ابن خياط إلى أن هارون الرشيد ولى عيسى بن جعفر إمارة البصرة أكثر من مرة خلال فترة خلافته ولا يذكر حملته على عمان.[3] وكانت عمان تتبع ولاية البصرة آنذاك، ويبقى الخلاف هنا حول صحة الرواية التى ذكرت فيها المصادرُ العمانية مقتل عيسى بن جعفر. ويمكن أن نخلص من ذلك إلى أن الحملة التى قادها عيسى بن جعفر لم يكتب لها النجاح، وأن انشغال العباسيين بأحداث أخرى أكثر خطورة وأهمية فى مناطق أخرى ساعد الإباضيين على البقاء مستقلين بدولتهم فى المناطق الداخلية لعمان.

تثبيت سلطة الأئمة ونشر المذهب:

بعد زوال الخطر الخارجى، واجه الإمام الناشئة خطراً داخلياً تمثل فى محاولة آل الجلندى استعادة قوتهم ومكانتهم فى عمان، وقد دفعهم ذلك الطموح إلى التعاون مع قبيلة بنى هناءة فشكلا حلفاً قوياً لمجابهة قبيلة اليحمد وأخذوا فى إثارة المتاعب للإمامة الإباظية.

ففى عهد الإمام غسان اليحمدى حوالى (192 – 207 / 807 – 823) تذكر المصادر العمانية أن أحد قادة آل الجلندى ويدعى الصقر بن محمد بن زائدة وبالتعاون مع راشد بن شاذان الهنائى تمكنا من السيطرة على بعض مناطق عمان وأعلنا استقلالهما عن الإمامة، وقد تمكن الإمامة من القضاء على هذا التمرد عن طريق القوة المسلحة[4]، وهذا يعنى أن

---

(1) الطبرى، تاريخ، 8/ 7/ 3.

(2) الطبرى، تاريخ، 8/ 346؛ ابن الأثير، أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى (ت: 630/ 1232)، الكامل فى التاريخ، بيروت: دار صادر، 1979، 62/ 208؛ ابن خياط، خليفة (ت240/ 854)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمرى، الرياض: دار طيبة، 1985، 460.

(3) خليفة، تاريخ، 460، 462؛ البغدادى، أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى (ت: 463/ 1070)، تاريخ مدينة السلام، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروتك دار الغرب الإسلامى، 2001، 12 / 479؛ الطبرى، تاريخ، 8/ 346 – 347.

(4) يذكر العوتبى أن راشد بن شاذان الهنائى "سار دما فانتهبها، وقتل واليها قومه، وكان ذلك فى أيام غسان بن عبد الله". الأنساب، 2/ 226، ويؤكد ذلك صاحب كشف الغمة والسالمى الذى أعطى تفاصيل أكثر لهذه الرواية نرى أنها غير صحيحة، فالرواية الأصلية هى لصاحب كتاب الأنساب والتفاصيل التى أضيفت عليها لاحقاً هى من صنع المتأخرين. كشف الغمة؛ السالمى، تحفة، 1/ 124.

الحركة الإباضية أخذت منحى جديدا فى تطورها السياسى – الدينى، وصارت تجيز استخدام القوة لنشر مبادئها وأفكارها، وهو الأمر الذى يتعارض مع السياسة السلمية التى تميز بها قادة الحركة الأوائل.

ويعدّ الإمامُ غسان من أشهر أئمة المذهب، ودليل هذه الشهرة المكانة والقوة اللتان بلغهما المذهب فى فترة حكمه وإمامته للحركة. فقد شهدت الإمامة فى عهده نشاطاً دينياً ملحوظا وانتشرت حلقات التعليم الدينى للمذهب وازداد عدد التلاميذ المتحمسين للفكر الإباضى فكان لذلك أثره فى انتشار القراءة والكتابة بين العمانيين، إلا أن ذلك انحصر على مبادئ المذاهب وأفكاره؛ فتخرج من هذه الحلقات عدد من رجال الدين الذين انتشروا فى المدن والقرى العمانية، وأخذوا على عاتقهم نشر أفكار المذهب الإباضى بين العامة من الناس الذين لا يعرفون عن الدين الإسلامى إلا العبادات التى يمارسونها، ولا يحفظون من القرآن الكريم إلا آيات قليلة يتلونها فى صلواتهم، فهم على بساطتهم يعيشون حياة خالية من التعقيد والصراع المذهبى أو الدينى.[1]

غيرت مفاهيم الحركة الإباضية حياة العمانيين كثيراً خلال هذه الفترة، وأصبح هناك أئمة وحكام يجب طاعتهم والولاء لهم، ورجال دين متنفذون أصحاب هيبة ومكانة روحية، يجب احترامهم وتقديرهم، ورسائل دينية تشرح للناس أمور دينهم كما يفسرها لهم الإمام أو الفقيه لا يمكن مخالفتها أو الاعتراض عليها، وما عدا ذلك فهو مخالف للمذهب ويجب محاربته. هكذا أرسى الإباضيون قواعد دولتهم الجديدة فى عمان، فهى دولة دينية بكل مقوماتها وتقسيماتها السياسية والإدارية بدءا بالإمام المتفق على تعيينه من قبل رجال الدين وانتهاءً بجباة الضرائب الذين يجمعون الصدقات لبيت مال المسلمين والذى بيد الإمام والفقيه، اللذين يقيمان فى نزوى بيضة الإسلام حسب رؤيتهم أو وصفهم لها.[2]

إن المعلومات القليلة المتناثرة فى كتب المذاهب والتى وصلت إلينا عن تلك الفترة لا

---

(1) حول المذهب الإباضى فى عمان انظر: T. Lewicki, "al- Ibādiyya", **Encyclopaedia of Islam**, New Edition, vol.3 (1986), 648-660.

(2) كشف الغمة، 258، والسالمى، تحفة، 1/ 125 – 127.

تشير إلى أى نوع من أنواع نظم الإدارة المنتشرة فى أقاليم الخلافة العباسية، ويبدو واضحا أن الإمام الإباضى ومعاونيه رفضوا كافة أشكال تلك النظم كافة لأنها ظهرت وتطورت فى زمن أعدائهم الأمويين والعباسيين، وأنه يجب العودة إلى الطريقة التى كان يدير بها الرسول ﷺ شئون الرعية، أى المسجد وبيت الإمام. ولعل ذلك هو سبب عدم قدرة الإمامة الإباضية على تطوير نظامها السياسى والإدارى ومن ثم إخفاقها فى الاستمرار والبقاء بشكل منتظم ضمن هيكل إدارى متفق عليه من قبل علماء الدين الذين كانوا يشكلون الركيزة الأساسية للإمامة.

فقد كانت شؤون الإمامة تدار من قبل مجموعة من الفقهاء الموالين أو المؤيدين للإمام، ويأتى فى مقدمة هؤلاء الفقيه موسى بن على الأزكوى[1] الذى كان بمثابة المرجع الأعلى للإمامة، وكان الإمام لا يقوم بعمل دون مشورته كما يقول السالمى: "فقام موسى بن على رحمه الله بالدولة حتى مات عبد الملك"[2] الإمام الذى عينه هذا الفقيه، ولم تعترض عليه قبيلة اليحمد رغم كونه من غيرها نسباً.

المشاكل والتحديات:

تفيد بعض الروايات التى حفظها لنا السالمى، فى كتابه تحفة الأعيان، أن سلطة الإمام لم تكن قوية على المدن والقرى العمانية، وخاصة مدن الساحل التى يبدو أنها قد تأثرت بأفكار بعض الفرق الإسلامية "وفى زمانه (عبد الملك بن حميد) رحمه الله أظهر قوم من القدرية والمرجئة دينهم بصحار، ودعوا الناس إليه، وكثر المستجيبون لهم فى ذلك الحين".[3] ورغم أن هذه الفرق لم يعرف لها نشاط تاريخى فى عمان إلا أن السالمى يلمح إلى

(1) يكتنف سيرة هذا الفقيه الكثير من الغموض رغم الدور الكبير الذى قام هو وابنه موسى بن موسى حسب ما تذكر المصادر العمانية فى السيطرة على شؤون الإمامة وفى تنصيب الأئمة فى القرن الثالث الهجرى، وسبب الخلط والغموض تشابه الأسماء؛ فهناك موسى بن جابر الأزكانى الذى لعب دوراً كبيراً فى إحياء الإمامة الإباضية الثانية وتوفى حوالى 181هـ، السالمى، تحفة، 1/ 117، وموسى بن على (ت: حوالى 230هـ) الذى لعب دوراً مهماً زمن الأئمة غسان وعبد الملك والمهنا. كشف الغمة، 258 – 260؛ ابن رزيق، الفتح المبين، 228 – 229. وموسى بن موسى (ت: حوالى 278)، الفقيه المتنفذ زمن الصلت بن مالك، وسنأتى على ذكره لاحقاً. انظر: ولكنسون، عمان تاريخاً وعلماء، ترجمة محمد أمين عبد الله، مسقط، عمان، وزارة التراث القومى والثقافة، 1980، 27-30.

(2) كشف الغمة، 260؛ السالمى، تحفة، 1/ 134.

(3) السالمى، تحفة، 1/ 138.

وجود مذاهب أخرى غير المذهب الإباضى فى هذه المناطق تحديداً، ومنها المذهب السنى.

لكن المدارس الفقهية للمذهب الإباضى فى تلك الفترة لم تتضح معالمها الخاصة، وهذا ما ساعد الفقيه المتنفذ على فرض سيطرته على الإمام والتحكم فى شؤونها المختلفة، ولعل اختياره لشخص لا ينتسب إلى إحدى القبائل القوية فى عمان لهو دلالة على مدى النفوذ الذى كان يتمتع به فقيه الدعوة أو الإمامة آنذاك، ويبدو أن ضعف الإمام عبد الملك بسبب كبر سنه[1] قد ساعد الفقيه موسى بن على على فرض الوصاية على الإمام والتصرف فى شؤون الدولة وفق رؤيته وتفسيره للأمور، ثم ما لبث أن عاد إلى قبيلة اليحمد مرة أخرى لضمان وجود دعم قوى للإمامة، ووقع اختياره على المهنا بن جيفر.

أثار ذلك استياء بعض القبائل القوية التى رأت فى ذلك التصرف أو الانفراد بالشئون الدينية والدنيوية للإمام خروجا عن المبادئ الأساسية للدعوة الإباضية، وعودة لنظام التعيين الذى رفضه قادتها الأوائل، كما أنه أثار حفيظة بعض رجال الدين الذين أرادوا أن يحظى حكم الإمام بشرعية أصحاب الحل والعقد، أى: مجلس الفقهاء لا بشرعية فقيه واحد أيا كانت منزلته ومعرفته بشئون المذهب، ومن هنا بدأ الصراع يتشكل، ويأخذ أبعادا دينية – قبيلة.

تؤكد المصادر الإباضية على أن الإمام بلغت أوج قوتها فى عهد الإمام المهنا بن جيفر، وتوحى الروايات المختلفة التى ورد ذكرها فى هذه المصادر بأن أنصار المذهب وأتباعه المتعصبين أرادوا فرض آرائهم على مخالفيهم من أهل عمان "وكان أبو مروان عاملاً للمهنا على صحار، وكان يشدد على المخالفين أن يظهروا بدعتهم كالقنوت،... ورفع الأيدى فى الصلاة، لأن هذا كله مما خالفونا فيه".[2]

إزاء هذا التصرف ثار بنو الجلندى فى منطقة توام ذات الأغلبية السنية، وهذا ما يجعلنا

(1) السالمى، تحفة،1/ 134-149.
(2) السالمى، تحفة، 1/ 154.

نميل إلى أن هذه الأسرة لم تكن إباضية المذهب الإباضى، وهل كانت الإمامة الإباضية الأولى إباضية فعلاً؟[1]

كذلك كانت الإمامة تعانى من مشاكل إدارية، فرغم مرور فترة زمنية طويلة نسبيا على نشأتها، إلا أن جهازها الإدارى والعسكرى لم يتطور، والسبب هو البساطة التى أراد أن يدير بها الفقهاء شؤون الإمامة الدينية والدنيوية. فالمعلومات القليلة المتوافرة بين أيدينا لا تتحدث عن جوانب إدارية فى شؤون الحكم، فالدولة كانت دينية والفقهاء هم الذين يقررون كل شىء، فالمراسلات بين الإمام وممثليه فى المدن الأخرى والولايات والتى وصل إلينا بعضٌ منها يغلب عليها الطابع الخطابى الملىء بالمواعظ والنصائح الدينية،[2] والأهم من ذلك كله أنّه لم يكن للإمام نظام إدارى ولا قضائى مركزى. فالنظام المركزى والنظم الإدارية التابعة له آنذاك لا معنى لها، والإمام يدير شؤون الناس من منزله بمشورة الفقيه.[3]

وقد لفت ذلك انتباه السالمى الذى أعطى بعض المعلومات يصف فيها قوة الإمام والتى لم يذكرها من سبقه من المؤرخين العمانيين فيقول عن إمامة المهنا "واجتمعت له من القوة البرية والبحرية ما شاء إليه، قيل: إنه اجتمع له فى البحر ثلاثمائة مركب مهيأة لحرب العدو، وكان عنده بنزوى سبعمائة ناقة، وستمائة فرس تركب عند أول صارخ فما ظنك بباقى الخيل والركاب فى سائر ممالكه. وقال العلامة الصبحى(؟): بلغنى أنه كان عند المهنا ابن جيفر تسعة آلاف مطية أو ثمانية آلاف مطية... وكانت عساكره فى نزوى عشرة آلاف مقاتل".[4]

إلا أن السالمى لا يعطى أى توضيح للنظام الإدارى والاقتصادى للإمامة، فالجيش

---

(1) الواقع أن جميع الدلائل والمؤشرات التى ورد ذكرها فى المصادر العمانية حول حركة المعارضة التى قادتها هذه الأسرة ضد الإمامة منذ قيامها تؤكد على أمر واحد وهو رفضها لحكم الإمام، ولو أن هذه الأسرة كانت إباضية المذهب لوقفت مع الإمامة، ودافعت عنها ضد الأخطار الخارجية ولتعاونت معها ضد الأخطار الداخلية. كشف الغمة، 262؛ ابن رزيق، الفتح المبين، 231؛ السالمى، تحفة، 1/ 154.

(2) السالمى، تحفة، 140 – 149.

(3) السالمى، تحفة، 1/ 150 – 151.

(4) السالمى، تحفة، 1/ 150.

الذى يتحدث عنه ليس إلا مجموعة من الشباب المتحمس لنصرة المذهب، يتم استنفاره وقت الحاجة، ولا يوجد فى الرسائل التى وصلت إلينا ما يفيد أن الإمام كان لديه قادة وإداريون ونظم للخراج وحتى بيت مال المسلمين كان يدار بالطريقة البدائية البسيطة، ولو كانت هناك سجلات لموارد الإمامة ومصاريفها لورد ذكرها فى تلك الرسائل. ولم تكن هناك قوة بحرية لأن السالمى نفسه، لا يتحدث عن معركة بحرية خاضها جيش الإمام ضد الجيش العباسى زمن الإمام عزان بن تميم، وكان ممثلو الإمام على المدن الرئيسية مثل: سمائل، أزكى، سلوت، الرستاق وغيرها هم من الفقهاء الذين ينفذون تعاليم المذهب، وفى الوقت نفسه كانوا مسئولين عن جمع الضرائب، ولم يكونوا إداريين، وكانوا يرأسون الجيش فى حالة الاستنفار.[1]

هذا الخلل الإدارى الكبير الذى كانت تعانى منه الإمامة رغم نجاحها النسبى فى السيطرة على الكثير من مناطق عمان أسهم فى التصدع والانهيار الذى بدأت ملامحه تظهر قبيل وفاة الإمام المهنا اليحمدى حوالى (237 / 851). فقد ظهر جيل مُجَدّد من فقهاء المذهب أتاحت له فترة النجاح والازدهار النسبية التعمق فى دراسة قضايا المذهب الإباضى والتحرر من سطوة مشايخ الدين الذين كانت لهم الكلمة العليا فى إدارة شؤون الإمامة ومراعاة مصالحهم الخاصة لضمان بقاء نفوذهم وسيطرتهم على صنع القرار.[2]

ويعد الفقيه محمد بن محبوب بن الرَّحيل (ت: حوالى 260/ 874) أحد أبرز علماء الدين الإباضية فى القرن الثالث الهجرى، ومعلوماتنا عن هذا الفقيه (حياته ونشاطه الدينى والسياسى) قليلة جداً،[3] إلا أن مؤلفاته فى المذهب ظلت باقية، يتناقلها علماء المذهب عبر العصور. وكان قد احتل مكانة رفيعة زمن الإمام المهنا لكنه قبل وفاته تبنى خطا معارضاً لسياسة الإمام[4] وكان على رأس المبايعين للإمام الصلت بن مالك، ويبدو

(1) سيرة أبى المؤثر، الشماخى، السير، 1/ 34. وفى حادثة ثورة آل الجلندى فى توام يذكر صاحب كشف الغمة أن الإمام المهنا بن جيفر اضطر إلى الاستعانة بالجالية الهندية الموجودة فى صحار للقضاء على هذه الثورة. وهذا يفسر عدم وجود جيش نظامى جاهز وقت الاستنفار. كشف الغمة، 262.

(2) أفرد السالمى لذلك عنوان سمّاه "ذكر ما وقع من الكلام فى المهنا بعد موته". والسالمى، تحفة، 1/ 158 – 161.

(3) يذكر السالمى أنه تولى القضاء فى صحار زمن الصلت حتى وفاته عام 260، السالمى، تحفة، 1/ 166.

(4) كشف الغمة، 263؛ السالمى، تحفة، 1/ 158– 159.

أنه كان يحظى بمنزلة عالية لدى مشايخ المذهب: "كان هناك بقايا من أشياخ المسلمين وفقهائهم ورئيسهم وإمامهم فى العلم والدين محمد بن محبوب، فبايعوا الصلت على ما بويع عليه الأئمة العدول من قبله"[1]، وهو تقليد سياسى – دينى تبنته الدعوة فى عمان، وارتضاه الأباضيون من أهلها. ولا تتوافر لدينا أية معلومات مفيدة عن بداية حكم الصلت بن مالك غير أن المصادر العمانية تثنى عليه وعلى الفترة الأولى من حكمه؛ "فقد سار بالحق والعدل ما شاء الله"،[2] مما يعنى أن الأمور كانت تُسيّر وفقاً لقواعد المذهب الإباضى الذى وصل إلى مرحلة النضج والتشكيل النهائى فى القرن الثالث الهجرى.

مسألة الإمام الطاعن فى السن:

أحدث تقدم الصلت فى السنّ، فى أواخر عهده خلافاً بين المشايخ فانقسم أنصار الدعوة إلى فريقين الأول: من تبقى من المشايخ المسنين الذين بايعوا الإمام الصلت وعاصروا الأئمة من قبله، وفى مقدمتهم أبو المؤثر الصلت بن خميس، والثانى: الجيل الجديد من الذين درسوا المذهب فى عهد الإمامة، واختلفوا مع مشايخهم فى مسألة عزل الإمام المسن، ويتقدمهم الفقيه موسى بن موسى الذى أفتى بجواز ذلك.

وهذه الخطوة الجريئة التى أقدم عليها هذا الفقيه لم تحظ بإجماع عام، فأدت إلى انقسام أتباع المذهب ثلاثة أقسام: الأول مؤيد، والثانى معارض والثالث: معتزل أمر الخلاف.[3] وقد أسهبت مصادر الفقه الإباضى فى الحديث عن هذه القضية، ووضعت رسائل ومؤلفات كثيرة، يبين فيها مؤلفوها وجهات نظرهم المؤيدة أو المعارضة لقضية عزل الإمام الصلت.[4] وقد نسبت إلى الإمام الصلت نفسه رسائل بعث بها إلى أنصاره يتهم

---

(1) كشف الغمة، 264.

(2) كشف الغمة، 264.

(3) كشف الغمة، 291 – 297؛ السالمى، تحفة، 1/ 196 – 199.

(4) جمعت بعض هذه الرسائل على شكل سير تناقلها مشايخ المذهب، وطبعت ضمن كتاب السير والجوابات الذى نشرته وزارة التراث القومى والثقافة بسلطنة عمان، ويهمنا منها السيرة المنسوبة إلى أبى المؤثر التى استعرض فيها آراء مخالفيهم فى هذه القضية والحجج التى رد بها عليهم، لمزيد من التفاصيل انظر: مجهول، السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان، مسقط: وزارة التراث القومى والثقافة، 1981، 1/ 17 – 79.

فيها موسى بن موسى وراشد بن النظر بأن أهدافهم شخصية، ولا تخدم المصلحة العامة[1].

والمتتبع لهذه القضية فى المصادر العمانية سيجد نفسه أمام سيل من الأقاول والرسائل والتفسيرات والآراء الموجهة إما إلى فقيه أو إلى إمام أو إلى أهل عمان، وقد تناقلتها هذه المصادر عبر السنين، وفيها الكثير من التكرار والحشو وعدم الدقة والوضوح، وجاء معظمها على شكل حوارات بين الأطراف المتنازعة، كتبت للمزايدات ولتسجيل المواقف والتعصب الدينى غير المبرر.[2]

وقد اعتمدت مصادر التاريخ العمانى فى كتابة تفاصيل تلك الأحداث على الروايات التى ذكرت فى الرسائل المنسوبة لفقهاء المذهب الذين عاصروا تلك الفترة. ومعظم هذه الروايات تمثل وجهة نظر الفئة المعارضة لراشد وموسى بن موسى؛ وأشهرها وأكثرها تناقلاً روايتان: رواية أبى المؤثر الصلت بن خميس الخروصى[3] (توفى نهاية القرن الثالث

---

(1) ورد ذكر هذه الرسالة معظم المصادر العمانية، والأسلوب العام الذى صيغت به هذه الرسالة يتوافق تماماً مع الحجج والآراء التى ذكرها الفريق المؤيد له والرافض لعزله؛ فقط قال فى الرسالة المنسوبة إليه "ونشأ اليوم أناس ظهرت رغبتهم فى الدنيا" السالمى، تحفة، 1/ 205. وفى الرسالة المنسوبة لأبى القحطان قال: "نشأ فى الدولة شباب وناس يتخشعون من غير ورع، يظهرون حب الدين، ويبطنون حب الدنيا.." **السير والجوابات**، 1/ 117، الأمر الذى يوحى بأن واضع أو كاتب هذه الرسائل هو شخص واحد ونسبها إلى الآخرين.

(2) نشر بعض هذه السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان، واستعرض السالمى كذلك هذه الآراء ولخصها فى كتابة **تحفة الأعيان**، ج1/ 196 – 215. ولمزيد مع المعلومات أنظر أيضا: Wilkinson, J. C. Bio- bibliographical Background of the Crisis Period in the Ibadi Imamate of Oman, **Arabian Studies**, vol.3, (1976), 148-151; Smith, G. and Wilkinson, J. The Omani Manuscript Collection at Muscat, **Arabian Studies**, vol. 4, (1978). 161-208.

(3) أبو المؤثر هو كما تنسبه المصادر العمانية خميس بن الصلت، وتؤكد هذه المصادر أنه عاصر فترة الحرب الأهلية، وحمل بشدة على راشد بن النظر وموسى بن موسى فى الرسالة المنسوبة إليه والتى اعتمدت عليها المصادر العمانية اللاحقة اعتماداً كبيراً فى تدوين أحداث تلك الفترة. وأسلوب الرسالة يوحى أنها صيغت فى فترة لاحقة لتلك الأحداث، فكاتبها يسوق فيها الحجج والأدلة الفقهية فى الرد على أعمال راشد بن النظر وموسى بن موسى وأحداثاً أخرى وقعت زمن عزان بن تميم مستشهداً بأفعال وأقوال للرسول ﷺ وخليفتيه أبى بكر وعمر وبأحداث أخرى حدثت زمن عثمان شبهها بالأحداث التى وقعت زمن راشد بن النظر. ونرى بأن هذه الرسالة لم تكتب فى زمن واحد بل فى فترات مختلفة، وذلك بسبب التداخل الشديد فى مواضيها والتكرار فى المواضيع أو الآراء، ويحتمل أن تكون روايات متفرقة فى التاريخ وقضايا المذهب واختلاف أهل عمان يرجع أصلها إلى فترة الحرب الأهلية. انظر: **السير والجوابات**، 1/ 21 – 79.

الهجرى) ورواية أبى قحطان خالد بن قحطان الخروصى[1] (توفى بداية القرن الرابع الهجرى)، وقد اعتمد عليهما كل من كتب عن تلك الأحداث من المؤلفين العمانيين من فقهاء ومؤرخين. وقد حمل هذان بشدة على راشد بن النظر وموسى بن موسى وتبرءا منهما، وتنسب لأبى المؤثر وأبى قحطان روايات ووسائل يسوقان فيها الحجج والمبررات لمواقفهما المتشددة ضد كل من أيّد مسألة عزل الإمام الصلت بن مالك. ويمكن اعتبارهما مؤسسى المدرسة الرستاقية المتشددة التى ينتهى إليها محمد بن عبد الله بن بركة، وأبو الحسن على بن محمد البيسانى.[2]

وفى المقابل وصلت إلينا نتف من رواية مؤيدة لراشد بن النظر وموسى بن موسى هى رواية الفضل بن الحوارى[3] وفى تلك النتف ردٌّ على معارضى إمامة راشد بن النظر. وكما ذكر السالمى آراء بعض المؤيدين لراشد وموسى ومنهم الأزهر بن محمد بن جعفر،[4]

---

(1) أبو القحطان: هو كما تسميه المصادر العمانية خالد بن قحطان الخروصى، كان معاصراً لأبى المؤثر، وتنسب إليه سيرة تسمى سيرة أبى القحطان، فيها هجوم قوى على موسى بن موسى وراشد بن النظر رغم اعترافه بمكانة موسى العلمية، ويصعب التأكد من صحة هذه الرسالة ومدى نسبتها إلى الفترة التى شهدت تلك الأحداث، إلا أنها تعبر عن وجهة نظر الفريق المعارض لعزل الصلت، والمتشدد لآراء وأفكار الدعوة الإباضية. انظر: **السير والجوابات**، 1/ 117 – 147.

(2) اشتهر عنهما مواقفهما المتشددة تجاه قضية عزل الصلت بن مالك، وتأثيرهما على المذهب الإباضى واضح من خلال مؤلفاتهما المشهورة. لمزيد من التفاصيل انظر: البطاشى، سيف بن حمود، **إتحاف الأعيان فى تاريخ بعض علماء عمان**، مسقط: مكتب المستشار الخاص لجلاله السلطان للشئون الدينية والتاريخية، 1/ 295 – 307.

(3) الفضل بن الحوارى: قتل فى وقعة القاع بصحار حوالى 278. وتنسبه المصادر العمانية إلى بنى سامة ابن لؤى، وينسب إليه كتاب فى الفقه الإباضى اسمه **جامع الفضل بن الحوارى** وهو مجموعة رسائل وأحكام فى الفقه الإباضى، تم جمعها وطباعتها ومن قبل وزارة التراث القومى بسلطنة عمان فى ثلاثة مجلدات صغيرة الحجم عام 1985. أما رأيه فى قضية عزل الصلت فكان صريحاً وواضحاً، وينسب إليه أنه قال "والظاهر الشاهر أنه قد اعتزل لأنه قد ترك عسكر المسلمين وبيت مالهم وسلاحهم" السالمى، **تحفة**، 1/ 201.

(4) الأزهر بن محمد بن جعفر: لم أقف له على أية ترجمة فى المصادر العمانية. وقد ذُكر فى بعض الروايات ذات العلاقة بأحداث الحرب الأهلية واسمه غريب على أهل عمان الذين ينتسبون إلى قبائل معروفة. ونقل عن والده محمد بن جعفر قوله: "فأما الصلت فإنه ضعيف وصار إلى حد العجز....، وعزل نفسه وتبرأ إلى المسلمين من إمامته وكان اعتزالاً شاهراً ظاهراً، ووضحت براءته من الإمامة بالبينة العادلة عندنا" السالمى، **التحفة**، 1/ 200.

الذى استنكر تصرف أبى المؤثر ومعارضته لإمامة راشد، وكان قد وافق على عزل الصلت، وعزى تغيير موقفه لانفراد موسى بن موسى بالبيعة لراشد دون استشارته[1].

وقد كان رأى هؤلاء كما يقول السالمى: "إن الصلت بن مالك صار إلى حد الضعف والعجز عن القياس بالإمامة، وخاف المسلمون ذهاب دولتهم وزوال نعمتهم، وكان موسى بن موسى فى وقته هو شيخ المسلمين وإمام أهل الدين".[2] ويمثل هؤلاء ما يسمى بالمدرسة النزوانية المعتدلة، نسبة إلى مدينة نزوى التى اتخذها الإمام راشد بن النظر مقراً له.

إلا أن المصدر الأكثر أهمية بالنسبة لنا هو كتاب **الأنساب** المنسوب للعوتبى[3] فروايته التاريخية أكثر دقة ووضوحاً، ويمكن اعتبارها محايدة، لا تمثل وجهة نظر أىٍّ من الفريقين المتصارعين. والنص الأصلى للكتاب مفقود ووصلتنا عنه نسخ متأخرة فيها الكثير من الأخطاء والتصحيف، ورغم ذلك فهو يورد بعض النصوص المهمة التى حفظت، ولم يطلها هذا التصحيف فيما يخص هذه الحرب، وتتوافق خطوطها العامة مع ما ورد ذكره فى الروايات المشار إليها أعلاه، إلا أن صاحب كتاب **الأنساب** أكثر وضوحاً، فهو يحدد أسماء أعيان القبائل المشاركة فى واقعتى الروضة والقاع عامى 277 / 890 و278/ 891.[4]

الخلاف الدينى والاقتتال القبلى:

بدأت مشكلة الإمامة التى كانت تعانى من سوء الإدارة والتنظيم[5] بعزل الإمام الصلت بن مالك حوالى عام 274 / 887 على يد مجموعة من الشباب المتحمس للتغيير

---

(1) السالمى، تحفة، 1/ 198 – 201.

(2) السالمى، تحفة، 1/ 197

(3) لمزيد من التفاصيل حول كتاب **الأنساب** المنسوب لسلمة بن مسلم العوتبى انظر: النابودة، حسن "كتاب الأنساب للعوتبى: إشكالات فى النسبة والتأليف"، مقبول للنشر، **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية**.

(4) العوتبى، **الأنساب**، 22/ 313 – 323.

(5) بدا ذلك واضحاً فى انحياز ولاة الإمام الصلت إلى الإمام الجديد ومناصرته، وهو الأمر الذى انتقده كتاب سيرة أبى المؤثر انتقاداً شديداً بقوله: "خرجتم عليه [الإمام الصلت] وسرتم إليه محاربين فلما أخرجتموه بالقهر والغلبة وأنتم ولاته، فبئس الولاة هؤلاء الولاة أن يكونوا ظالمين للصلت، فما ينبغى أن يلوا لكم ولا يتولوكم، وهم يتولون الصلت، وكانوا له عمالاً" الشماخى، **السير**، 1/ 35.

يقودهم راشد بن النظر الذى حظى بدعم قوى من بعض فقهاء الجيل الجديد وفى مقدمتهم موسى بن موسى.[1] واتخذ من نزوى مقراً لحكمه، كما حظى بدعم بعض ولاة الصلت الذين باركوا هذا التغيير.[2] إلا أن أنصار الجيل القديم رفضوا التنازل عن مكاسبهم، وأيدوا الإمام المخلوع فى المطالبة باسترجاعه بوصفه إماما شرعيا.[3] والذين رأوا عدم شرعية هذا التغيير هم الفقهاء المسنون الذين شهدوا بيعة الصلت وفى مقدمتهم أبو المؤثر الصلت بن خميس.[4] وقد عمّ الخلاف بين أتباع المذهب واتهم راشد بالظلم وعدم الإنصاف فى تعامله مع أقرباء الإمام المخلوع.[5] كما اضطرب الوضع فى الرستاق المدينة الرئيسة الثانية للإمام وبدا فى الأفق بوادر حرب أهلية.[6] ويبدو أن الفقيه موسى ابن موسى الذى قاد هذا الانقلاب قد حاول التقرب من أتباع الإمام المعزول من خلال تثبيت عماله السابقين فى مناصبهم، كما حاول كسب ودّ شاذان ابن الإمام المخلوع، إلا أن أتباع الصلت رفضوا كلياً المساومة أو التفاوض واتخذوا موقفاً متشدداً ضد الإمام راشد ابن النظر ومساعده الفقيه موسى بن موسى.[7] الأمر الذى شجع بعض القبائل – غير الإباضية والخاضعة اسمياً للإمامة – فى بلاد المهرة شجعها على التمرد والثورة، فلم يتمكن الإمام الجديد من التصدى لها مما زاد الأمور تعقيداً وصعوبة وقوّى موقف المعارضين لهذا التغيير.[8]

وهكذا استثمر أنصار الإمام المخلوع تمرد القبائل وتمكنوا من تشكيل حلف سياسى

---

(1) الشماخى، السير، 1/ 40.

(2) السالمى، تحفة، 1/ 206، 211، 218.

(3) فى الرسالة المنسوبة للفقيه الإباضى أبى المؤثر الصلت بن خميس يرد على من زعم أن الإمام الصلت قد اعتزل بقوله: "ليس للإمام الشارى أن يعتزل إلا أن يتغير عقله فلا يعقل، أو يتغير سمعه فلا يسمع، أو يذهب بصره فلا يبصر، أو يذهب لسانه فلا يتكلم فحينئذٍ يسعه أن يعتزل وليس للمسلمين أن يعزلوه إلا بحد يصيبه، فلا بد أن يقيموا عليه إماماً غيره أو بذنب مكفر ليسموه بعينه شاهراً فى البلد الذى هو فيه عامة المسلمين، فيحتجوا عليه، فإذا أصر ولم يتب، حل عزله ومحاربته وقتله إن قاتلهم". الشماخى، السير، 1/ 33.

(4) السالمى، تحفة، 1/ 197.

(5) الشماخى، السير، 1/ 44 – 46.

(6) حاول راشد أن يفرض سلطته بالقوة على المعارضين فى مدينة الرستاق التى تجمع فيها المعارضون لإمامته الأمر الذى أدى إلى مواجهة فيما بعد. السالمى، تحفة، 1/ 219.

(7) الشماخى، السير، 1/ 45 – 47.

(8) السالمى، تحفة، 1/ 219.

قوى، ضم مجموعة كبيرة من قبائل اليحمد والعتيك وفروع أخرى من مالك بن فهم، ونصّبوا شاذان إماماً عليهم، وتوجهوا إلى نزوى لخلع راشد بن النظر.[1] فجهز الإمام الجديد جيشاً من القبائل الموالية له بقيادة عبد الله بن سعيد الفجحى، وتمكن هذا الجيش من إلحاق الهزيمة بالثوار، وألقى القبض على كثير من قادة القبائل المتمردة، وسجنوا ثم أطلق سراحهم فيما بعد، فى خطوة تصالحية من قبل الإمام راشد.[2]

وعرفت هذه المعركة فى تاريخ الإمام بمعركة الروضة، وكان من نتائجها ازدياد حدة الخلاف السياسى والدينى بين أتباع المذهب الإباضى وتطوره إلى حرب أهلية، ودخول العمانيين فى خلافات حادة أثرت تأثيرا سيئا على الوضع السياسى والاقتصادى للمنطقة لقرون عدة.

وتعكس لنا وقعةُ الروضة وما أعقبها من نتائج وأحداث وخلافات سياسية ودينية، إخفاقَ دعاة المذهب ورجال الدين وعدم قدرتهم على إيجاد صيغة أو مرجعية ثابتة للمذهب الإباضى يتفق عليها الجميع. فكانت الأهواء والخلافات القبلية أقوى بكثير من المبادئ التى دعا إليها مؤسسو المذهب وأتباعه الأوائل.

فالفقيه موسى بن موسى الذى أيد خلع الإمام الصلت بن مالك وأفتى بشرعية جواز خلع الإمام المسنّ كان فى نظر قادة الحركة من الفقهاء المتقدمين وعلماء الدعوة الكبار من "أهل بيت علم وورع"[3]، لكن انفراده باتخاذ القرارات الحاسمة والمهمة كان من أهم الأسباب فى الخلاف الذى وقع بينه وبين منافسيه، وفى مقدمتهم أبى المؤثر، كما يفهم من سياق الروايات المذكورة فى الرسائل التى وصلتنا عن تلك الفترة. أما أبو المؤثر ومؤيدوه

---

(1) العوتبى، الأنساب، 2/ 313 – 314.

(2) يحمل صاحب السيرة المنسوبة إلى أبى المؤثر بشدة على أتباع راشد وموسى ويتهمهم بارتكاب الفظائع فى هذه المعركة "وكان الرجل يأتى مستسلماً فيدفع إليهم سيفه، فيأخذونه منه ثم يقتلونه". الشماخى، السير، 1/ 48. كما أنه يتهم راشد بسجن أتباع الصلت وتعذيبهم "ولا نعلم أحداً من سلطان العدل والجور سبق راشداً إلى هذا الفعل". الشماخى، السير، 1/ 52، إلا أن صاحب كتاب الأنساب يذكر أن عدد القتلى كان محدوداً، وأن الثوار انهزموا بسرعة، وأسر بعض القادة ووجوه اليحمد والعتيك "فحبسهم راشد بن النظر سنة أو أكثر، ثم سأل فى شأنهم موسى بن موسى... فأطلقهم". العوتبى، الأنساب، 2/ 314؛ السالمى، تحفة، 1/ 234.

(3) الشماخى، السير، 1/ 119.

فإن مواقفهم المتعصبة والمتشددة كما تعكسها لنا الآراء المنسوبة إليهم قد تسببت فى إغلاق كافة المسارات السلمية للحوار والمناقشة للوصول إلى حل سلمى للأزمة التى كانت تمر بها الإمامة زمن راشد بن النظر، الأمر الذى أفضى فى النهاية إلى إضعاف موقف الإمام وتخلى الفقيه موسى بن موسى عنه[1]، وظهور حركة تمرد وعصيان فى بعض المناطق الواقعة تحت سلطة الإمامة.[2]

استغلت المعارضة تلك الظروف الصعبة التى كان يمر بها الإمام راشد وتم إعلان الثورة عليه مرة أخرى والتمكن من خلعه ووضع فى السجن حوالى عام 277 / 890؛ وتعيين عزان بن تميم الخروصى إماما بدلا عنه.[3] وتذكر الروايات أن الفقيه موسى بن موسى أيد هذا التغيير إلا أنه اختلف مع الإمام الجديد فيما بعد، وقاد ثورة ضده فى مدينة أزكى، إلا أن الإمام عزان تمكن من القضاء عليه وقتله.[4]

والمتفحص للروايات التى يرد فيها ذكر الفقيه موسى بن موسى يجد انحيازا تاما ضده بسبب موقفه الأول من قضية الصلت بن مالك وقوله بجوازه خلع الإمام المسن، مما يثير تساؤلاً حول صحة هذه المعلومات التى أراد واضعوها الطعن والتشكيك فى شرعية مواقف وفتاوى هذا الفقيه، التى واجهت سيلا من الرسائل والانتقادات الحادة والتهجم الشخصى.

والراجح أن معارضيه أرادوا من وراء ذلك إضفاء الشرعية على تصرف الإمام عزان ابن تميم، والإيحاء بأن موسى بن موسى شخص متقلب المواقف والأهواء وإنما فعل ما فعل من أجل مصالحه الشخصية. لكن ذلك لا يبرر استباحة مدينة أزكى، والمبالغة فى قتل أعداد كبيرة من سكانها كما تذكر الروايات أيضا، مما أدى إلى انقسام قبائل عمان الرئيسة فريقين عرفا تقليدياً باليمانية: وهم اليحمد، العتيك، بنو هناءة، والنزارية: وهم الحدان وبنو سامة بن لؤى وبنو عوف بن عامر، وقبائل عدنانية أخرى بقيادة الحوارى بن عبد الله

(1) السالمى، تحفة، 1/ 239 – 240.
(2) الشماخى، السير، 1/ 52 – 61؛ السالمى، تحفة، 1/ 240.
(3) العوتبى، الأنساب، 2/ 319.
(4) العوتبى، الأنساب، 2/ 320.

الحدانى. وقد التقى الطرفان فى موقعة عرفت بالقاع حوالى 278 / 891، انتصرت فيها القبائل المؤيدة لعزان بن تميم بقيادة الأهيف بن حمحام الهنائى وقتل فيها عدد كبير من المعارضة منهم بعض مشايخ الإباضية المنتسبين لبنى سامة بن لؤى[1].

أما الأسباب التى أدت إلى هذه الحرب كما توحى الروايات المختلفة فهى العصبية الدينية والقبلية، حيث تطور الخلاف بين مشايخ المذهب إلى خلاف قبلى كما روى أحد أولئك المشايخ الذين عاصروا تلك الحرب: "يقال لهم ما الذى تنقمون على عزان بن تميم فإن قالوا: لا نعرف كيف كانت إمامته، ولا يعرف ممن قبلها ولا أخذنا ولايته عن أحد، قيل لهم: قد اجتمع على إمامته عمر بن محمد القاضى، وموسى بن موسى، ونبهان بن عثمان، وأبو المؤثر الصلت بن خميس، ومن هؤلاء من أهل العصر والبصائر من تقوم به الإمامة، ومن هو عالم بصلاحها وفسادها وثبوتها وبطلانها ومن يسترقها..".[2]

فهؤلاء هم أصحاب الحل والعقد الذين لا تصح الإمامة إلا بموافقتهم لكن الخلاف سرعان ما دبّ بينهم، فقد تبرأ موسى بن موسى من عزان ومن إمامته، وأيّده فى ذلك بعض مشايخ المذهب، وهنا حدث الانشقاق بين مجلس أهل الحل والعقد الذين بايعوا عزان، فمنهم فريق معه ومنهم آخر ضده. وقد رأى الفريق الأول المؤيد لعزان أن رأى الإمام مقدم على رأى الفقهاء إذا اختلفوا "وقد جاء فى الآثار أن الفقهاء إذا اختلفوا، فللإمام أن يأخذ من ذلك ما رآه هو موافقاً للحق، والعدل".[3]

واتسعت هوة الخلاف بين المؤيد والمعارض باستخدام القياس على آراء المشايخ المتقدمين فى المذهب فى الحوادث المتشابهة والمختلف عليها، وأراد عزان حسم هذا الخلاف بالقوة واستخدام السيف، فتم قتل موسى بن موسى الشخصية المهمة فى تلك الأحداث والأكثر جدلاً بين الشخصيات المعاصرة له. وبقتله ثارت النعرة العصبية لدى قبيلة سامة بن لؤى التى ينتسب إليها، "وذلك حين قتل موسى بن موسى بأزكى ومن معه من قومه فاستوحش الناس لذلك وخاصة النزارية، ومن كان موالياً لهم من اليمانية"[4] فقرروا أخذ الثأر لقتلاهم، وخلع الإمام عزان ومبايعة الحوارى بن عبد الله من قبيلة الحدان الموالية لبنى سامة بن لؤى.

---

(1) العوتبى، الأنساب، 2/ 320 – 321؛ السالمى، تحفة، 252.
(2) السالمى، تحفة، 1/ 244.
(3) السالمى، تحفة، 1/ 249.
(4) السالمى، تحفة، 1/ 251.

وكما توحى الروايات فإن صيحات الحرب والثأر كانت أقوى من أى دعوة للمفاوضات أو السلم، فكانت النتيجة انقسام أهل عمان إلى حزبين كبيرين، استفحل بينهما الخلاف الدينى – القبلى كل حزب له إمام وفقهاء وقبائل متعصبة له. وفى ظروف كهذه، اختفى صوت العقل، وتعالت صيحات الثأر والتهديد والوعيد، فلم يبادر أى من الفريقين إلى محاولة رأب الصدع والتفاوض من أجل السلم أو دفع ديّات القتلى وفق أحكام المذهب الإباضى، فكان السابق إلى ساحة المعركة أسرع من أية مبادرات سلمية، هذه المعركة التى سيدفع ثمنها الجميع.

الفريق المنهزم أراد الثأر بأية وسيلة، وإن كانت الاستعانة بغير أهل عمان الذين ينتظرون هذه الفرصة للسيطرة على عمان وعلى مدنها التجارية التى كانت تمثل موقعاً مهماً لحركة التجارة والملاحة فى المحيط الهندى، وهكذا استنجد من تبقى من النزارية بالوالى العباسى على البحرين محمد بن نور.

سقوط الإمامة:

كانت الدولة العباسية فى هذه الفترة تتمتع بشىء من الاستقرار والقوة العسكرية نسبياً فى زمن المعتضد (279 – 289 / 892 – 902)[1]. وكانت الظروف سانحة جداً لإخضاع المناطق الداخلية لعمان لسلطة الوالى العباسى على البحرين محمد بن نور الذى جهز حملة قوية حوالى 280 تمكنت من هزيمة الإباضيين وقتل إمامهم عزان بن تميم.[2]

وقد بالغت المصادر العمانية فى عرض تفاصيل تلك الأحداث، ووصفتها بالوحشية؛ حيث نسبت إلى محمد بن نور قتل الآلاف من العمانيين وحرق أرضهم وكتبهم واستباحة

(1) حول خلافة المعتضد أنظر: فاروق عمر، **الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرية**، بغداد: مكتبة المثنى، 1977، 82 – 83.

(2) ورد ذكر تفاصيل هذه الحملة فى المصادر العمانية، حيث ذكر صاحب **كشف الغمة** أن محمد بن أبى القاسم وبشير بن المنذر من بنى سامة بن لؤى توجها إلى البحرين "وسألاه الخروج معهما إلى عمان، وأطمعاه فى أشياء كثيرة فأجابهما إلى ذلك" بعد أن أخذ موافقة الخليفة العباسى المعتضد، وجهز جيشاً قوامه خمسة وعشرين ألفاً وثلاثة وخمسمائة فارس، فنزل جلفار، وتوجه منها نحو توام، ثم قصد نزوى حيث تخاذل الناس عن نصرة إمامهم عزان "فكانت الهزيمة على أهل عمان، وقتل عزان ابن تميم، وخرجت عمان من يد أهلها" وذلك فى صفر 280 هـ، وحاول الأهيف بن حمحام قائد الجيش الالتفاف على القائد العباسى محمد بن نور والقضاء عليه لولا المدد الذى وصله من القبائل النزارية. فحلت الهزيمة على جيش الإمامة. **كشف الغمة**، 269– 273.

مدنهم وسلب كل ما فيها.[1] ويغلب على هذه التفاصيل الطابع الوصفى الملىء بالأحاسيس والعواطف المثيرة للمشاعر والحب والكره، وهى لذلك لا تسعف الباحث فى رسم خريطة واضحة المعالم لتلك الأحداث المهمة التى أثرت كثيراً فى مستقبل الإمامة والمذهب الإباضى بشكل عام.

ولا يذكر كتاب الأنساب المنسوب للعوتبى هذه التفاصيل رغم أنه كتب بعد هذه الأحداث بفترة قصيرة[2]، كما أنه لا تتوفر أية معلومات عنها فى مصادر أخرى، فالمصادر الإسلامية المعاصرة لتلك الفترة لا تذكر شيئاً عن هذه الأحداث، وأما الطبرى فيذكر الحملة فى سطر واحد فقط دون أية تفاصيل أو معلومات مفيدة[3].

وبعد انسحاب الجيش العباسى من المناطق الداخلية لعمان حاول الإباضيون إعادة إحياء إمامتهم فتم تنصيب بعض الأئمة الذين اختلف فى أمر تسميتهم "أئمة الشرى" أو "أئمة الدفاع"، كما أن هناك خلطاً واضطراباً شديدين فى شأن تواريخ هؤلاء الأئمة وسلطتهم الفعلية. وقد ذكرهم الأزكوى فى كتابه كشف الغمة، ونقل عنه من جاء بعده، وختم كلامه بالقول: "وفيما أظن أن هؤلاء الأئمة المذكورين بعد الصلت بن مالك لم تدن لهم جميع عمان ولم يحز سلطانهم فيها، وإنما كانوا فى بعض البلدان دون بعض وعلى أحد من القبائل دون أحد، ولم تتألف كلمة عمان، ولا اجتمعوا على إمام من بعد الفتن التى وقعت بينهم بما بدلوا نعمة الله عليهم فتشتتت قلوبهم"[4]

ويبدو أن الفترة التى أعقبت حملة محمد بن نور لم تكن مستقرة، فقد رفض الإباضيون

---

(1) يقول صاحب كشف الغمة: "فلما استولى محمد بن نور على عمان جعل أعزة أهلها أذلة، وقطع الأيدى والأرجل والآذان، وسمل الأعين وأحل أهلها النكال والهوان، ودفن الأنهار وأحرق الكتب، ونهب عمان من أيدى أهلها". كشف الغمة، 275.

(2) العوتبى، الأنساب، 2/ 323.

(3)يتفق الطبرى مع ما ذكرته المصادر العمانية عن السنة التى غزا فيها محمد بن نور عمان وهى 280 هجرية، إلا أنه لم يعط أية تفاصيل حول هذه الحملة، ويكتفى بالقول: "وفيها افتتح محمد بن نور عمان، وبعث برؤوس جماعة من أهلها". الطبرى، تاريخ، 10/ 33؛ ابن الأثير، الكامل، 7/ 464.

(4) كشف الغمة، 280. وكان لمشايخ المذهب دور كبير فى تأجيج هذه الخلافات بسبب تعصبهم وتشددهم فى المواقف التى تبنوها تجاه قضية عزل الصلت بن مالك بالرغم مما جرى لعمان بسبب ذلك. وقد أفرد صاحب كشف الغمة فصلاً كاملاً لهؤلاء العلماء سماه: ذكر اختلاف أهل الدعوة فى ولاية أهل الحدث الواقع بعمان فى زمن الصلت بن مالك" استعرض فيه آراءهم وحججهم تجاه هذه القضية وهؤلاء عاصروا تلك الحرب الأهلية وما أعقبها من أحداث. كشف الغمة، 283 – 299.

حكم بنى سامة بن لؤى الذين حظوا بدعم السلطة العباسية، وتمكنوا من بسط سلطانهم على سواحل عمان إلا أن المناطق الداخلية ظلت خارجة عن نطاق سلطتهم الفعلية، وعن هذه الفترة يقول السالمى: "ووجدت أن الجبابرة تغلبوا على أهل عمان، يسومونهم سوء العذاب أربعين سنة، وذلك بعد حرب محمد بن بور(نور). ولعل هؤلاء الجبابرة كانوا من بنى سامة بنى لؤى"[1].

وقد صادف ذلك ظهور قرامطة البحرين الذين غزو عمان، وأخضعوا أجزاء كثيرة منها لسلطتهم، وإزاء هذه الأحداث ضعفت الحركة الإباضية، فظلت حبيسة خلافاتهم السياسية رغم المحاولات الكثيرة التى بذلت لأجل إقامة إمامة قوية قادرة على التصدى للأخطار الداخلية والخارجية، وهذه المحاولات قام بها بعض الأئمة فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، وهو موضوع جدير بالدراسة لما فيه من أحداث مهمة أثرت سلباً على وضع الإمامة.

الخاتمة:

إذا كانت الأخطار الخارجية قد وحدت قادة الحركة الإباضية فى عمان وأسهمت فى تحقيق أهدافهم لإقامة دولتهم المستقلة، فإن الأخطار الداخلية قد تسببت فى ضعفها وعدم قدرتها على البقاء والاستمرار؛ فالتيار المعارض لعزل الإمام الصلت ازداد تطرفاً وتعصباً وصار له قادة أظهروا البراءة من أتباع موسى بن موسى وراشد بن النظر وحملوا الناس على آرائهم المتطرفة، وأسسوا ما يسمى بالمدرسة الرستاقية المتشددة، وقاد هذا التيار فى القرن الرابع الهجرى اثنان من مشاهير الفقه الإباضى هما أبو الحسن على بن محمد البسيانى أو البسيوى من قبيله اليحمد (وينسب إليه كتاب الجامع وكتاب مختصر البسيوى) وأبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة (وينسب إليه عدة مؤلفات فى الفقه الإباضى أشهرها جامع ابن بركة) اللذان حملا بشدة على أتباع موسى وراشد وقالا: "إنهما خرجا على الإمام العادل، وهو إمام بالإجماع، ؛والخارج على إمام بالإجماع باغ بالإجماع، والبراءة من الباغى بالإجماع واجبة بالإجماع"[2].

---

(1) السالمى، تحفة، 1/ 263.

(2) السالمى، تحفة، 1/ 212.

ورغم محاولة بعض المعتدلين من أتباع الحركة الإباضية الرد على المتطرفين مثل أبى سعيد محمد بن سعيد الكدمى الذى ألف كتاب الاستقامة فى الرد على المتشددين، وأبى عبد الله محمد بن روح بن عربى إلا أن أصواتهم كانت تخبو وتصمت أمام الهجوم القوى الذى شنه عليهم المتشددون من الإباضيين. وقد علق السالمى على ذلك بقوله: "وبلى أهل عمان بهذا الافتراق بلاء عظيم وبقيت الفرقة زماناً طويلاً، حتى ظهر الإمام الموفق المؤيد ناصر بن مرشد رضى الله عنه، وأرضاه، فأمات تلك البدعة، وأحيا منار الحق، وظهر الإسلام"[1]

وينفرد السالمى دون غيره من المؤلفين العمانيين بإبداء رأيه فى تلك الأحداث ويرى أن "للإمام أن يعتزل إذا طلب منه المسلمون ذلك"[2]، ويرفض منطق التشدد والغلو، "فلا تصح البراءة من موسى وراشد، فيكف يلزمونها الناس؟"[3]

ويتميز السالمى بنظراته التحليلية للأحداث التاريخية، فهو يرى أن "الفرقة" كما يسميها استمرت فترة طويلة من الزمن امتدت من بداية القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى إلى زمن ناصر بن مرشد فى القرن السابع عشر الميلادى، أى أن آثار تلك الحرب الأهلية والخلافات السياسية والدينية تسببت فى تأخير قيام إمامة الظهور القوية قرابة ستة قرون، وقد ترتب على ذلك تعطل حركة التاريخ بالنسبة للحركة الإباضية. ونتفق هنا مع السالمى فى بعض ما قاله ونختلف معه فى بعضه الآخر؛ فالتعصب الدينى الذى عرفه الإباضيون فى تلك الفترة كان ظاهرة عامة لدى الكثير من المذاهب والفرق الإسلامية وكان سبباً رئيساً للحروب والعديد من المشاكل التى واجهتها الدول الإسلامية المختلفة التى عاصرت الإمامة الإباضية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين. إلا أن ما يميز الحركة الإباضية أو المذهب الإباضى عن بقية المذاهب الإسلامية هو رفضه لمبدأ الوراثة فى الحكم الذى كان منتشراً فى جميع الدول الإسلامية آنذاك، لكن نظرة رجال الدين أو فقهاء المذهب لشئون السياسة والحكم لم تتطور وظلت حبيسة أفكار دعاتها الأوائل؛ فقضية الإمام المسن لم تجد لها حلاً لأنها لم تظهر إلا بعد قيام إمامة الظهور، وعندما أفتى الفقيه

(1) السالمى، تحفة، 1/ 212 – 213.
(2) السالمى، تحفة، 213.
(3) السالمى، تحفة، 1/ 213.

الإباضى موسى بن موسى بجواز عزل الإمام المسن واجه عاصفة من الاعتراضات والهجوم الذى تطور إلى حرب أهلية تسببت فى زوال الإمامة. وبعد زوال الخطر الخارجى دخل علماء المذهب فى دوامة هذا الخلاف الذى أصاب التطور الفكرى والسياسى للحركة الإباضية بالشلل وفرض عليها طوقاً من العزلة الخارجية فكان الأئمة أضعف من أن يحكموا سيطرتهم حتى على المناطق الخاضعة لحكمهم، وهكذا فقدت الحركة ديناميكيتها وقدرتها على التطور والعطاء، حيث دخلت فى فترة مظلمة أطلق عليها المؤرخون العمانيون فترة "حكم الجبابرة" ويقصدون بذلك فترة حكم بنى نبهان[1] الذين شاركوا الأئمة حكم المناطق الداخلية لعمان، وكانوا أكثر قوة وهيبة من الأئمة الإباضيين الذين لم يتمكنوا من القضاء على النبهانيين إلا بعد مرور سبعة قرون سبقت ظهور ناصر بن مرشد اليعربى فى القرن السابع عشر الميلادى الذى أعاد توحيد عمان، وأسس دولة قوية، بسطت سلطانها ونفوذها على مناطق عديدة فى الخليج العربى وسواحل إفريقيا. ورغم استخدام اليعربيين لقب الإمام واعتبارهم من الأئمة الإباضيين إلا أنهم خالفوا قواعد المذهب؛ فنظامهم السياسى كان قائماً على مبدأ الحكم الوراثى، ولكنه حظى بمباركة فقهاء المذهب لأنه أصبح أمراً واقعاً وعهداً قويا للحركة الإباضية طال انتظاره.

* * *

(1) ويعلق السالمى على ذلك بقوله: "وذلك لما أراد الله تعالى من إنفاذ أمره فى أهل عمان، فإنهم لما افترقوا فرقتين وصاروا طائفتين نزع الله دولتهم من أيديهم، وسلّط عليهم قوماً من أنفسهم يسومونهم سوء العذاب". السالمى، تحفة، 1/ 352.